كمال النجمي

Türkiye Diyanet Vakfı
İslam Araştırmaları Merkezi
Kütüphanesi

تراث الغناء العربي

بين الموصلي وزرياب.. وأم كلثوم وعبد الوهاب

دار الشروق

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

مقدمة

فى أواخر الستينات انعقدت فى القاهرة لجنة من الغيورين على تراث الغناء العربى القريب ، الذى لم يتجاوز عمره مائة عام ، من أيام عبده الحامولى إلى منتصف القرن العشرين .

واستطاعت هذه اللجنة أن تحصر على وجه التقريب مجموع الأغانى التراثية ، فوجدتها تزيد على ألفى موشح ودور وقصيدة وطقطوقة ، فضلاً عن الأغانى المسرحية . . ولم تتعرض اللجنة للأغانى الفلكلورية الشعبية التى ألفها ولحنها الفنانون المجهولون . . . فهذه تحتاج إلى جهد آخر . .

وقررت اللجنة تدوين ما استطاعت حصره من التراث الغنائى وإخراجه فى أربعين كتابًا يتوالى صدورها فى فترات متقاربة تحت اسم « سلسلة تراثنا الموسيقى » . .

ولكن الأربعين كتابا لم يصدر منها إلا أربعة ، ثم انحلت اللجنة التى كانت تتخذ من معهد الموسيقى العربى القديم ـ « فى شارع رمسيس بالقاهرة » ـ مقرًا لها ، قبل أن تضعه وزارة الثقافة تحت إشرافها وتجعله أقرب إلى المتحف منه إلى المعهد . .

إن سوء حظ هذه اللجنة وكتبها الأربعين ، يذكرنا بسوء حظ كتب التراث فى الموسيقى العربية على امتداد أربعة عشر قرنًا من الزمان . فإن الذى وصل إلينا من هذه الكتب لا يزيد على قطرة من بحر . . . وضاعت بقية الكتب ، وأوشك أن يضيع معها تراث الغناء العربى إلا قليلا ! . .

وقبل أن نقفز إلى كتب التراث التى ضاعت فى الزمن الغابر ، نلقى نظرة على الكتب التى صدرت عن الغناء والموسيقى فى مصر خلال المائة سنة الماضية . .

فهذه الكتب كلها لا تزيد على ثلاثين أو أربعين كتابًا . . ولا يدخل ضمن هذه الكتب بطبيعة الحال ما يؤلفه مدرسو المعاهد والكليات الموسيقية فى مصر من كتب دراسية تعليمية خفيفة الوزن ، محدودة القيمة . .

وأقدم كتاب مصرى فى الموسيقى خلال المائة عام الماضية ، هو كتاب « سفينة الملك . . . ونفيسة الفلك » . . . الذى يعرفه الموسيقيون باسم « سفينة شهاب » نسبة إلى الشيخ شهاب الدين محمد بن إسماعيل المتوفى سنة ١٢٧٣ هـ ـ ١٨٥٦ م ، ويحتوى على مئات من الموشحات بكلماتها ومقاماتها وإيقاعاتها ، وهو أهم كتاب صدر فى حينه ، ومنه اقتبس مطربو وملحنو القرن الماضى ، وظل معينا لا ينضب لمن جاء بعدهم حتى اليوم . .

ولم يصدر بعد هذا الكتاب النفيس كتاب فى طبقته حتى أصدر الموسيقار المرحوم محمد كامل الخلعى كتابه الذى سماه « كتاب الموسيقى الشرقى » . . . وبين كتاب الشيخ شهاب الدين وكتاب كامل الخلعى أكثر من ثمانين عامًا لم يصدر خلالها كتاب فى الغناء والموسيقى ، إلا كتاب «الموسيقى والغناء عند العرب » للعلامة المحقق أحمد تيمور باشا وبعض الكتب المدرسية الطابع للدكتور محمود الحفنى ، مثل كتاب « الموسيقى العربى » و « الموسيقى فى الممالك القديمة » و«الموسيقى عند الفراعنة » .

وفى الثلاثين عامًا الأخيرة صدرت كتب قليلة عن الموسيقى العربية والغناء العربى مثل كتاب «أضواء على الموسيقى العربية » لأحمد شفيق أبو عوف ، وترجمة لكتاب المستشرق البريطانى هنرى فارمر « تاريخ الموسيقى العربية » وكتاب « الأغانى والموسيقى الشرقية » للمرحوم أحمد أبو الخضر منسى ، وكتب تتناول تاريخ بعض كبار الملحنين المصريين ، وأربعة كتب متواضعة لكاتب هذه السطور صدرت عن سلسلة « كتاب الهلال » بين سنة ١٩٦٦ وسنة ١٩٧٢ ثم كتاب له عن التراث القديم من جزئين ، عنوانه « يوميات المغنين والجوارى» . . .

أما بقية الكتب التى صدرت خلال الثلاثين عامًا الأخيرة فكلها ـ تقريبًا ـ تتناول الموسيقى الأوروبية ، ولا شأن لها بالموسيقى العربية ، مثل كتاب « التذوق الموسيقى » لصديقنا المرحوم سعيد عزت ، عازف الفلوت البارع ، وهو كتاب ضخم يشير إلى الموسيقى العربية إشارات قلائل، ويفتح سائر صفحاته للموسيقى الأوروبية ، ومثله كتاب « الثقافة الموسيقية » لصالح عبدون ، وكتاب « التأليف الموسيقى » لسمحة الخولى ـ وهو ترجمة لا تأليف ـ وكتاب « قواعد الموسيقى الغربية وتذوقها » لمحمد محمود سامى حافظ . . وكتاب « فن الأوبرا » لمحمد رشاد بدران . . وبضعة كتب أخرى تنقل مادتها من الكتب الأجنبية مثل كتاب « ريتشارد فاجنر » للدكتور فؤاد زكريا . . وكتاب « الموسيقى السيمفونية » للدكتور حسين فوزى وكتب أخرى تنحو هذا المنحى ، وتخاطب القارئ باستعلاء ، وتقدم إليه الموسيقى الأوروبية بديلاً عن الموسيقى العربية ، وتوحى إليه تلميحًا أو تصريحًا أن مصير الغناء العربى والموسيقى العربية إلى سلة مهملات التاريخ ، أو إلى « المتاحف » على أحسن تقدير ! !

هكذا جاءت حصيلة الزمن الممتد بين الشيخ شهاب الدين وبين المؤلفين المعاصرين الذين يمكن أن يقال إنهم لم يكتبوا شيئًا كثيرا فى الغناء والموسيقى . .

فكيف كانت حصيلة الزمن العربى الغابر الذى نشأ فيه الغناء العربى وشب واكتهل ثم علت به السن حتى شاخ وضعف ، وأوشك أن يذهب بددا فى غبار التاريخ ؟

أن أقدم كتاب وصل إلينا من كتب أسلافنا عن الغناء والموسيقى هو « كتاب النغم » . . ألفه «يونس الكاتب » الملحن المغنى الذى شهد أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية ، وسبق أبا الفرج الأصبهانى فى مضمار التأليف عن الغناء العربى بمائتى عام أو أكثر . . ثم ألف يونس الكاتب عن الغناء والمغنيات الجوارى فى عصره كتابا سماه « كتاب القيان » . . وقد أتم يونس تأليف كتابيه هذين قبل ألف ومائتى سنة . .

وجاء الخليل بن أحمد الفراهيدى (٧١٨ ـ ٧٩١ م) بعد يونس الكاتب ، فكتب فى الغناء والإيقاع « كتاب النغم » ، و « كتاب الإيقاع » إلى جانب مؤلفاته الفذة الرائدة فى العروض الشعرى واللغة .

ولم يبلغ رتبة الخليل بن أحمد فى التأليف الموسيقى إلا إسحاق الموصلى الذى جاء بعد الخليل بفترة قصيرة واستطاع ـ على حد تعبير المستشرق هنرى فارمر فى كتابه عن الموسيقى العربية ـ « أن يخضع النظريات المتطاحنة فى ممارسة الفن لنظام واضح » .

وجاء فى كتاب « الفهرست » لابن النديم أن لإسحاق الموصلى أربعين كتابًا فى الغناء والتلحين والإيقاع وتاريخ الغناء والمغنين . . منها كتاب يسمى « كتاب الأغانى الكبير » . .

وقد ضاعت هذه الكتب الأربعون كلها ، ولكننا نرجح إنها ظلت موجودة ومقروءة أكثر من مائة عام بعد وفاة إسحاق ، ومنها أخذ أبو الفرج الأصبهانى غير قليل من مادة كتابه العظيم «كتاب الأغانى » . . ولم يكن لأبى الفرج مصدر أغزر مادة من كتب إسحاق الموصلى ، ومنها كتاب « أخبار عزة الميلاء » و « أغانى معبد » و « أخبار حنين الحيرى » و « أخبار طويس » و « أخبار سعيد بن مسجح » و « أخبار محمد بن عائشة » و « قيان الحجاز » وكتب عن الغريض وابن سريج وطويس فضلاً عن كتاب فى الإيقاع وكتاب فى الرقص وكتب أخرى يضيق عنها المقام! .

ويا لها من ثروة فنية وأدبية وتاريخية لا تقدر بثمن ، ذهبت كلها أدراج الرياح ، ولم يبق منها إلا ما نقله أبو الفرج الأصبهانى وقليل غيره من المؤلفين . .

ويمكن اعتبار الموسيقار الفيلسوف الكندى ـ المتوفى سنة ٨٧٤ م ـ معاصرًا لإسحاق الموصلى ،

وقد ساهم بقسط كبير من التأليف الموسيقى ، فتحدث عن الأصوات وأبعادها وأجناس المقامات وأنواع الألحان ـ وأثبت أن الغناء العربى فن قائم بذاته ليس هو بفارسى ولا برومى بالرغم من أن العرب اقتبسوا بعض طرائق هؤلاء القوم فى النغم كما أخذوا عنهم استعمال « العود » . . لكن العود فى أيدى المغنين العرب استعرب تمامًا وصار مختلفًا عن عيدان الفرس والروم . . ويقول الفيلسوف الكندى : « لكل أمة فى آلة العود طريقة ليست لغيرها من الأمم » . . . وهذا معناه أن لكل أمة مذهبًا فى الغناء ليس لغيرها ولا يمكن أن تتخلى أمة عن مذهبها فى الغناء لأنه مقيم بوجدانها، راسخ فى شعورها . .

وقد كان الكندى غزير التأليف فى الموسيقى ، ولكن كتبه ضاعت كما ضاعت كتب الموصلى ولم يبق منها إلا ثلاثة كتب ، وبعض مخطوطات ما زالت فى متاحف أوروبا . . .

ولا يعرف التاريخ العربى بعد إسحاق الموصلى والفيلسوف الكندى من كبار المؤلفين فى الغناء والموسيقى إلا الاصبهانى أو الأصفهانى صاحب كتاب « الأغانى » الذى ما زال منذ أكثر من ألف سنة أشهر الكتب فى هذا الفن على الإطلاق . . وهو فى غير حاجة إلى تقديم لكثرة ما يعرف عنه الخاص والعام من القراء . .

وكما كان الفيلسوف أبو يوسف يعقوب الكندى معاصرًا لإسحاق الموصلى ، وندا له فى التأليف عن الغناء والموسيقى ، فكذلك كان الفيلسوف أبو نصر محمد الفارابى معاصرًا لأبى الفرج الأصفهانى وندا له فى التأليف عن الغناء والموسيقى ولكن ما كتبه أبو الفرج خلد على الزمان ، واندثرت غالبية كتب الفارابى فى الموسيقى ، فذهب معها زاد وفير فى الغناء والموسيقى، وضاعت معالم كثيرة من تاريخ هذا الفن العظيم .

وكان المؤرخ الكبير أبو الحسن على المسعودى صاحب تاريخ « مروج الذهب » الشهير ، معاصرًا أيضًا لأبى الفرج الأصفهانى وله ضمن كتابه التاريخى الكبير فصل طويل عن الغناء العربى وتاريخه . . ومن حسن الحظ أن هذا الفصل ما زال ثابتًا فى مكانه بين فصول الكتاب . . ولكن كتاباته الأخرى فى الموسيقى والرقص والآلات الموسيقية لم تبق على حالها ، ولم تصل إلينا إلا شذرات منها . .

ثم جاءت الفرقة الفلسفية المسماة (إخوان الصفا) ولها كتاب أو دراسة فى الموسيقى . .

أما ابن سينا الفيلسوف فلم تكن الموسيقى ـ على أجادته لها ـ إلا جزءًا من مواهبه وأعماله ومؤلفاته . .

وتحتل كتابات بعض المتصوفة عن الغناء والموسيقى منزلة عالمية ، وبخاصة ما كتبه الإمام الغزالى فى كتابه « آداب السماع والوجد » وهو جزء من موسوعته الضخمة «إحياء علوم الدين» .

وفى « كتاب آداب السماع والوجد » يقيم الإمام الغزالى الأدلة العقلية والنقلية على إباحة الغناء والسماع فى الدين ، ويستشهد بالآية الكريمة : « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » ، فيقول إن هذه الآية تحمل فى ألفاظها ومعانيها استنكار الصوت القبيح واستحسان الصوت الجميل ، فلا يصح فى الذهن تحريم الصوت الجميل وما يصدر عنه من غناء . .

ولنا فى كتاب الغزالى عن الغناء دراسات ، لم نستطع أن نلم بها هنا إلا بهذه الإشارة العابرة لضيق المجال . .

ويضيق المجال أيضًا عن الإلمام بكل من كتبوا عن الغناء والموسيقى فى تراثنا ويتعذر إحصاء ما كتبوه ، فإن أكثره الآن مفقود أو مجهول ، ولا يغيب عن البال ما أغرقه التتار فى دجلة عند غزوهم بغداد سنة ١٢٥٨ م . .

وهناك قوائم لا تنتهى بأسماء كتب التراث فى الموسيقى والغناء ، ولكنها كقوائم المفقودين فى الحروب ، مجرد أسماء لا يعرف أحد مصير أصحابها .

وقد ذكر ابن النديم فى « الفهرست » كتبًا عن الغناء والموسيقى لا يعرف أحد شيئًا عنها الآن ، فإن غزوات هولاكو وتيمورلنك والصليبيين فى المشرق ، وغزوات القشتاليين « الأسبان » فى الأندلس والمغرب ، دمرت ملايين المؤلفات العربية أو أحرقتها عمدًا . .

ويقول المستشرق البريطانى هـ . ج . فارمر فى كتابه « تاريخ الموسيقى العربية » إنه لم يبق من الكتب الذى ذكرها ابن النديم فى « الفهرست » إلا ما يساوى ٦٪ من مجموع هذه الكتب .

ولم تنج من الدمار حتى بعض كتب الموسيقار صفى الدين عبد المؤمن الأرموى ، آخر الموسيقيين العظام فى بغداد « توفى سنة ١٢٩٤ م » ، مع أن السفاح هولاكو كان معجبًا بفنه ، وقد أعفاه وأسرته وجيرانه من النهب والسبى على أيدى عساكره المتوحشين الذين لم يتركوا أحدًا فى عاصمة الخلافة إلا نهبوه أو جعلوه سبيا لهم !

وبعد . .

فكم يبقى من تراث الغناء العربى المعاصر لأحفادنا القادمين وراءنا بعد ألف سنة أخرى إن شاء الله ؟

نرجو أن تحفظ التسجيلات من تراثنا هذا ما يكفى ، ولكن أحفاد أحفادنا القادمين من وراء الغيب ، ستصيبهم الدهشة من قلة مؤلفاتنا ، بل من عدم وجودها تقريبًا بالقياس إلى مؤلفات أسلافنا نحن ، التى امتلأت بها رفوف المكتبات ستمائة سنة ، منذ أول كتاب ألفه يونس الكاتب فى القرن الأول الهجرى ، إلى آخر كتاب ألفه صفى الدين الأرموى فى القرن السابع الهجرى . .

إن أحفادنا لن تكفيهم مذكرات أم كلثوم ومذكرات عبد الوهاب وعبد الحليم وفريد الأطرش التى كتبها لهم بعض الصحفيين ونشرتها الصحف فى حينها . . .

وقد يعجز الأحفاد الأعزاء بعد ألف سنة عن فهم الأسباب التى قعدت بنا فى هذا المضمار ، ونرجو أن يعذرونا على كل حال !!

وفى كتابنا هذا عن « الغناء العربى من عصر الموصلى وزرياب ، إلى عصر أم كلثوم وعبد الوهاب » نحاول أن نسهم بجهد متواضع فى إلقاء الضوء على جوانب من تراث الغناء العربى ـ وبخاصة فى مصر ـ عسى أن يخدم ذلك الجهود المبذولة الآن لتطوير الغناء العربى وحماية أسلوبه المستقل فى الأداء والتعبير . .

وقد كانت مادة كتابنا هذا متفرقة فى كتابات لنا نشرتها الصحف ، فجمعناها وقسمناها على فصول يكمل بعضها بعضًا ، ويربط بينها المعنى العام لتراث الغناء العربى فى مصر ، متواصلا بلا انقطاع من أول تاريخ فن الغناء العربى المتقن قبل ألف سنة إلى الآن . .

كمال النجمى

الفصـــل الأول

عصر الموصلى وزرياب وخلفائهما

* مناظرات إسحاق الموصلى وإبراهيم بن المهدى
* معركة الحياة والموت بين إسحاق الموصلى وزرياب الأندلسى
* شعر عمر بن أبى ربيعة فى الغناء القديم
* الغناء الدينى والدنيوى عند الإمام الغزالى
* الغناء والإيقاع والرقص بين الإمام الغزالى والمستشرقين
* غناء بعض الخلفاء وغناء أبنائهم